المثقف العربي والاستعمار الجديد

بقلم الدكتور عبد العزيز الدوري

يشترك الاستعماران القديم والجديد من ناحية الغاية والهدف في ظاهرة واحدة ذات جانبين : الجانب الاول هو الاستغلال الاقتصادي بمعناه الشامل ، اي المواد الخام والقوى البشرية والاسواق التجارية ، والجانب الثاني هو السيطرة الثقافية بمعناها الشامل ايضا ، اي الدين واللغة والعادات والسلوك والعلاقات الاجتماعية . والجانبان مع ذلك وجهان لشيء واحد هو الاستغلال المادي والمعنوي .

وانما الخلاف بين الاستعمارين في الاساليب التي يتبعها كلاهما لتحقيق هذه الغاية المشتركة . ولما كان اختلاف الاساليب هو نتيجة لتغير الاوضاع التاريخية والظروف العالمية ، وثمرة للتجارب التي عاناها الاستعمار القديم منذ بدأت حركته في الاتساع ، كان لا بد لكي نفهم الاستعمار الجديد ونعرف دوره في الحياة الثقافية للامة العربية وواجب المثقفين العرب ازاءه ، ان نعرض في ايجاز للقضايا التاريخية الكبرى التي حولت الاستعمار القديم الى جديد .

لقد ارتبط الاستعمار القديم بظهور الطبقة الوسطى في اوروبا الغربية وباستخدام الآلة البخارية وقيام الصناعة الآلية مكان الصناعة اليدوية . ومعنى هذا ان قدرة الانتاج زادت ، ورؤوس الاموال المستخدمة فيه تضخمت ، واصبح تحقيق ارباح متزايدة يستلزم الحصول على المادة الخام التي تسمح للآلة بفرصة العمل المتصل وكذلك الحصول على اسواق جديدة لتوزيع هذه المنتجات الصناعية .

وهذا العامل الاقتصادي الذي ظهر في العصور الحديثة هو الذي يفرق ببين ما نسميه بالاستعمار القديم وبين الفتوحات العسكرية والسياسية السابقة التي مثلتها الامبراطورية الرومانية ، فهذه فتوحات لها اغراض اخرى ، ولها منطلقات مختلفة ، وان كان للعامل الاقتصادي دور فيها . صحيح ان الدولة الرومانية قد انتفعت بحقول القمح التي كانت تزرع في سورية ومصر حتى استطاعت في فترة من تاريخها ان تقدم الخبز مجانا لابناء روما ، ولكن مراكز الصناعة اليدوية كانت منبثة في اجزاء تلك الامبراطورية بحيث لم تتح الفرص لظهور طبقة رأسمالية بالمعنى الحديث . وكانت طبقة التجار ، لضعف وسائل المواصلات ولان الانتاج الزراعي لا يقبل التخزين الطويل ، قليلة النفوذ ، لا تستطيع ان تحرك اجهزة الدولة حسب مشيئتها ، وانما كان المجد العسكري ورغبة الاباطرة في ان يمدوا حدود ممالكهم أقوى تأثيرا وابعد نفوذا في سير الاحداث الحربية والسياسية .

وهذه نقطة خلاف بين الامبراطوريات القديمة والامبريالية الحديثة ، حيث تقع الدولة تحت نفوذ الرأسماليين ، بل وتكاد أن تصبح ممثلة لهم تتحرك بأمرهم وتسخر اجهزتها وجيوشها لصالحهم .

على اننا اذا تحدثنا عن العامل الاقتصادي وجعلناه حجر الزاوية في حركة الاستعمار الاوروبي ، فلا ينبغي ان نهمل عوامل اخرى غير اقتصادية كانت تحرك الامبرياليات الحديثة ، خاصة حين يتصل الامر بالوطن العربي او بدار الاسلام . فاذا كان النشاط الاستعماري للبرتغاليين والاسبانيين في اوائل القرن السادس عشر قد اتجه نحو اكتشاف امريكا ثم الهجرة اليها واستغلال مواردها ، فان هذا الاستعمار البرتغالي والاسباني قد اتجه ايضا وفي الوقت نفسه الى الشمال الافريقي ، اي الى المغرب الكبير ، امتدادا لحركة الحروب الصليبية واستجابة لمشاعر الصراع الديني الذي شغل الناس على جانبي البحر الابيض خلال القرون الوسطى . وكذلك كان استبداد الحاكمين وشهوة التسلط لديهم ، وهو كذلك اثر ممتد من القرون الوسطى له دوره في الخطوات الاولى للاستعمار الاوروبي . وان قيام الامبراطورية العثمانية وتوسعها الحربي شرقا وجنوبا وصراعها مع الاوروبيين غربا يحمل في طياته هذه المعاني كلها ، الديني منها والعسكري والاقتصادي ، وذلك كله يقع على اعتاب العصر الحديث ، وقد انتقلت خلاله مراكز القوة من الشرق الى المغرب الاوروبي .

وامر اخر يلقي ضوءا على الاستعمار الاوروبي ويفرق بينه وبين الامبراطوريات القديمة ويفسر اتجاهه واساليبه هو أن ما ذكرناه من استخدام الآلة لم يكن ظاهرة منعزلة في الحياة الاوروبية ، وانما كان ثمرة تقدم علمي وثقافي شمل كثيرا من ميادين الحياة ولم يقف عند الجانب الاقتصادي والتطبيقي وحدهما ، مما اعطى للرجل الاوروبي ثقة بنفسه وواقعية في تفكيره ونهجا علميا في معالجة أمور حياته . فأضعف ذلك من سلطان الخرافة على العقول ودفع بالحياة الى مزيد من الجدية والشعور بالمسؤولية والمقدرة على التحكم في واقع الحياة العملية والفكرية .

ولو ان الشرق الاسلامي او الوطن العربي استطاع ان يستفيد من هذه الكشوف العلمية ومن هذا التقدم المنهجي اولا بأول منذ ظهوره في الغرب الاوروبي لما وجد الاستعمار الاوروبي منفذا الى هذه المناطق ، ولاتخذ الصراع وجها آخر فلم يصبح الامر امر مستعمرين ومستعمرين . ولكن التخلف العلمي والمحافظة على النمط الفكري والعملي القديم في هذه المناطق اتاح الفرصة للسيطرة الاوروبية والاستعمار الاوروبي . ومعنى ذلك ان استخدام الآلة والتقدم الاوروبي لا يفسران الاتجاه الاستعماري الا على ضوء التخلف الذي ظل قائما من وراء هذا العالم الاوروبي والذي اغرى الغرب وشجعه ومكنه من الاستعلاء في الارض واوجد عنده عقدة التفوق كما أوجد بيننا عقدة التخلف .

***

اتخذ الاستعمار القديم اسلوب الغزو العسكري في المناطق التي دخلها من العالم الافريقي الآسيوي ، وقد حقق هذا الغزو اغراضه العسكرية على الرغم من المقاومة الشديدة التي صادفها في كثير من المناطق ، ومنها المغرب العربي ، بسبب التفوق في عدة القتال وادواته ، من بنادق يحملها الجنود ومدافع تحملها السفن . واصبحت قلة اوروبية تسيطر على شعوب كثيرة العدد واسعة الحدود . ولكن الغزاة الاوروبيين كانوا يعلمون ان القوة العسكرية وحدها لا تستطيع الثبات طويلا في تلك المناطق البعيدة عن اوطانها وامام تلك الامواج الهائلة من الجماهير الآسيوية الافريقية . فبدأوا يستخدمون اسلحة مساعدة تعينهم على هذا البقاء .

واتيح لهم عن طريق علمائهم ومؤرخيهم ان يتعرفوا على مواطن الضعف والقوة ، وعلى الخلافات الدينية والطائفية ، وعلى تجمعات القبائل والاجناس التي تتألف منها الامم المغلوبة ، فأخذت حركة التبشير الديني تتسع وتمد بما تحتاج اليه من وسائل واموال ، وانشئت المعاهد التي تدرس اللغات المحلية واللهجات العامية والمعتقدات الشعبية ، ثم شرع الغزاة في تأليف بعض الطوائف والتقريب بينها وبين الطوائف الاخرى ، وفتح الباب في البلاد المغلوبة لهجرات اوروبية تقيم في مدن او أحياء او فيما يسمى (بالمستعمرات) واجلى بالقوة بعض المواطنين عن بقاعهم ليحل أولئك المستوطنون الاجانب مكانهم .. وتمكن الاوروبيون

بخبراتهم وعملهم من اكتشاف المناجم وآبار البترول والمواد الخام التي تشتمل عليها البلاد وقاموا باستغلالها ونقل ما فيها ، واستخدموا عن طريق الاجر الزهيد او السخرة ابناء البلاد في هذا الاستغلال ، وبذلك اوجدوا فئات ترتزق بالعمل معهم ، وفتحوا الاسواق لسلعهم وتجارتهم، وجعلوا من فئات الاعيان والموظفين في البلاد المفتوحة مستهلكين لهذه السلع ، وبذلك ضربوا الصناعات المحلية ، وهي في الاصل صناعات يدوية لم تكن قادرة على المنافسة لو جاءت حتى بالطريق السلمي . وطال امد الاحتلال العسكري ، وتمكن من اخماد الثورات المحلية بقوة السلاح، حتى خيل للناس في فترة من الزمن انه احتلال ابدي ، لا طاقة للشعوب العزلاء بدفعه . واختلطت كراهية المستعمر بنزوع الى التشبه به ومحاكاته على حسب ما ذكره ابن خلدون من ولع المغلوب بتقليد الغالب. وحدث ما يشبه الانبهار بالمظاهر الحضارية التي حملها الغزاة . وتزعزعت ثقة كثير من المواطنين بمثلهم وحضارتهم وشكوا في اصالتهم. ومع ذلك فقد ظل هؤلاء المستعمرون يحملون السلاح ويقيمون القلاع ويستخدمون العنف ويسفكون الدماء ويزجون بالناس الى السجون ، ويتكلفون في سبيل ذلك اموالا ونفقات ليحافظوا على وجودهم وثرواتهم التي انتزعوها ومستعمراتهم التي اقاموها ، وظلت القوة العسكرية تحمي الغزو الفكري والنفسي والاجتماعي خلال فترة الاستعمار القديم كله .

هذه الصورة المجملة للاستعمار القديم عرفها الوطن العربي بكل تفاصيلها ، واستخدمت على ارض العرب كل اساليبها ، واخذت كل اشكالها منذ الغزوات البرتغالية لموانيء المغرب المطلة على المحيط الاطلسي ولمناطق من الجنوب العربي الى الغزوات الاسبانية لموانيء المغرب الكبير على البحر الابيض في القرنين السادس عشر والسابع عشر الى الحملة الفرنسية على مصر والغزو الفرنسي للجزائر وتونس ومراكش الى الاحتلال الانجليزي لمصر والسودان والشرق العربي والاحتلال الايطالي لليبيا . شهد الوطن العربي اغتصاب الارض وانتهاب الثروات المعدنية واقامة المستعمرات للمستوطنين الاجانب ، كما شهد المعاهد العلمية ومراكز البحوث التي قامت لخدمة الاستعمار في عواصمه ، ورأى ارساليات التبشير وحماية المنحرفين من اصحاب الشعبذات الدينية واحتضان طوائف واثارة اقليات وفرض نظم من التعليم ومحاربة اللغة العربية واصطناع المنتفعين والخونة ، وكل ما يحمله الاستعمار القديم من عداء للشعوب ويضمره من كراهية لتقدمها وما يحاوله من مسخ تراثها ، وما يسلكه من اغراء وتخويف .

ومع ذلك فان الموقف بالنسبة للوطن العربي من الاستعمار القديم اختلف عن الموقف في مناطق اخرى من العالم الآسيوي الافريقي . وأوضح مظاهر هذا الاختلاف تتجلى في امرين : الامر الاول ان هذا الاستعمار الاوروبي بدأ متأخرا في الوطن العربي بالقياس الى تاريخه في الهند واندونيسيا . فالاستعمار الحقيقي يبدأ باحتلال الجزائر في سنة ١٨٣٠ على حين ان الغزو الاستعماري لمناطق الشرق الاقصى بدأ قبل ذلك بنحو قرنين . وتفسير هذا التأخر الزمني لغزو الوطن العربي يرجع لقرب هذا الوطن العربي من ارض المستعمرين في اوروبا وتنافس الدول الاوروبية وخشيتها ان تنفرد احداها بهذا الغزو فيختل توازن القوى في حوض البحر الابيض ، وهذا هو الذي جعل الدولة العثمانية يطول مرضها وتبقى مستقلة ، وان كانت عاجزة ، امدا غير قصير .

والامر الثاني هو ان الغزو الاستعماري صادف أرضا يرث اهلها حضارتهم القديمة ويمتلكون لغة غنية ويعتزون بتراث كان له دور في تاريخ البشرية ، خلافا لما صادفه هذا الغزو الاستعماري في سائر مناطق القارة الافريقية .

وأمر ثالث هو ان هذا الغزو الاوروبي ـ بعد الفترة القصيرة للحملة الفرنسية ـ جاء الى بلاد كانت قد بدأت تستفيد ، وان تكن استفادة محدودة ، بالتقدم العلمي الذي عرفته اوروبا منذ عصر النهضة. فالعلاقة بين الجمهوريات الايطالية وبين الموانيء العربية منذ عصر النهضة كانت قائمة ، مما جعل بعض اقطار الوطن العربي تعرف من صناعة السفن وامور التجارة ما لم تعرفه اجزاء العالم الآسيوي الافريقي . وهذه النقطة لا تزال في حاجة الى دراسة ، ولا تزال تتطلب مزيدا من الوضوح . ولكن الثابت أن موانيء سورية ومصر كانت في عصر النهضة كما كانت قديما منافذ لحركة تجارية واسعة بين الشرق الاقصى واوروبا . وكذلك أخذت بعض اقطار الوطن العربي وخاصة مصر قبل الغزو الاستعماري بكثير من أسباب المدنية الاوروبية في القرن التاسع عشر ، واكتشف بعض المفكرين فيها الجانب النفعي من الحضارة الاوروبية .

وهذه الامور الثلاثة : تأخر الاستعمار وامتلاك العرب لتراث غني والاتصال السابق باوروبا ، ضمن للوطن العربي وللمواطنين العرب نوعا من الحصانة والقدرة على المقاومة الثقافية لم تتح لمناطق أخرى كثيرة . ولا يزال الوطن العربي يمتلك قدرات ثقافية ومعنوية تجعله قادرا على المواجهة الحضارية وعلى ابراز طابع اصيل على المستوى العالمي .

ولهذا كله صادف الاستعمار القديم في أرض العرب كفاحا دائبا مستمرا ، تجلى في ثورات مسلحة عنيدة ابتدأت بالامير عبد القادر الجزائري وتوالت واحدة بعد اخرى لا تخمد في قطر الا اندلعت في قطر آخر . ثم بثورات شعبية اجتاحت المدن العربية واحدة بعد واحدة. ثم بتنظيمات سياسية وحركات ثقافية تؤكد عروبة الوطن وتدافع عن عقيدة اهله وتقاوم المسخ الثقافي والطمس الحضاري الذي بذل في سبيله الاستعمار كل غال ورخيص .

وينتهي الاستعمار القديم ليجيء الاستعمار الجديد .

ان التفرقة بين الاستعمار القديم وبين ما يسمى بالاستعمار الجديد امر يمكن ان يكون سهلا جدا وواضحا جدا اذا قلنا ان الاستعمار الجديد قد تخلى عن الاحتلال العسكري واجلى جيوشه عن الاوطان التي كان يعسكر فيها لحماية نفسه واخضاع المواطنين ، وبذلك استقلت المستعمرات القديمة وصارت دولا ذات سيادة تمثل في الهيئات الدولية وتقيم لها سفارات وقنصليات في ممالك الارض المختلفة . ومع ذلك فان التفرقة تصبح غامضة معقدة حين تتجاوز هذا المظهر الخارجي لجيش محتل الى الغاية او الهدف الذي من اجله احتل هذا الجيش الاجنبي وطنا غير وطنه ، اي هدف الاستغلال المادي والمعنوي . فهل زال هذا الاستغلال بزوال الاحتلال ؟ ان الشواهد كلها تثبت ان هذا الاستغلال لا يزال قائما ، ومن هنا جاز أن يسمى هذا الاستغلال بنفس اللفظ الاول وهو الاستعمار تضاف اليه صفة (الجديد) .

ولكن قبل أن نتحدث عن مظاهر هذا الاستغلال وعن اساليب الاستعمار الجديد ، ينبغي ان نذكر الاسباب التي بمقتضاها حدث الجلاء العسكري . ان هنالك اسبابا تساق في هذا السبيل لا يختلف احد في وجودها ، ولكنهم يختلفون في اولوياتها . ومع ذلك فاننا نستطيع ان نجمل هذه الاسباب في قضيتين هما الصراع العالمي ، والوعي الجماهيري .

اما فيما يتصل بالصراع العالمي ، فان التنافس على الاستعمار بصورته القديمة قد جر على أوروبا وعلى العالم حربين عالميتين هما حرب سنة ١٩١٤ ثم حرب سنة ١٩٣٩ . وفي الحق ان الغرب الاوروبي حين انطلق في طريق الاستعمار لم ينسق خططه ، وما كان له ان ينسقها ، والامر امر استغلال وبطش وجشع مادي ، ولذلك باءت محاولات التنسيق بالفشل وعاش الغرب الاوروبي تحت تهديد الحرب قبل الحربين المذكورتين بزمن طويل وخلالهما ، وكان دخول الولايات المتحدة غمار الحربين يستلزم اصطناع صيغة جديدة للاستعمار ، ثم كان ظهور الاتحاد السوفياتي بمذهبه السياسي بعد الحرب الثانية وامتداد هذا المذهب الى آسيا نقطة تحول خطير في ميزان القوى وفي تغير خريطة العالم السياسية ، وفي الفزع الذي أصاب المستعمرين الغربيين ومعهم امريكا ، بل في احتمال حرب تدمر ما لم تستطع تدميره الحروب السابقة . فكان لا بد من اتخاذ اساليب جديدة وخطط مختلفة يستتر وراءها الاستعمار القديم ويحتمي من الخطر المتوقع ، فاضطر الى ان يظهر عدوله عن القهر والعنف ، وكان مظهرهما الاحتلال العسكري واخماد الحركات الشعبية بقوة السلاح ، فسحب جيوشه واخلى

مواقعه العسكرية .

اما القضية الثانية ، وهي قضية الوعي الجماهيري ممثلة في الحركات القومية في آسيا وافريقية ، فقد انفسح لها المجال ، وشهدت المستعمرات كلها يقظة فكرية وسياسية ازدادت مع الايام ، لما تحمله الحضارة الحديثة ذاتها من وسائل الاعلام وسرعة المواصلات ، ولما تسرب الى المستعمرات من افكار جديدة نتيجة لهذا الاتصال ، ومن وعي عالمي بمشاكل الاقتصاد والسياسة ، واساليب المقاومة وحقوق الشعوب . ووجد المستعمرون انفسهم مضطرين الى عوامل التهدئة والتسكين فشرعوا في ابرام المعاهدات والتنازل عن بعض مظهريات الحكم . وعرفوا ان الاحتفاظ بالجيوش المحتلة وبالردع المسلح يكلفهم ثمنا باهظا ويفتح المجال لتطور هذه الحركات الشعبية نحو المعسكر الاشتراكي المناوىء ، وبذلك تحدث بالنسبة لهم الطامة الكبرى وتصبح اوطانهم نفسها في مهب الرياح .

وواضح أن هذا الانتقال من الاحتلال العسكري الى معاهدات الاستقلال ظهر بين الحربين العالميتين . ومع ذلك فان لفظ الاستعمار الجديد لم يظهر في تلك الفترة بل أن هذه التسمية لم تعرف حتى بعد جلاء جيوش الاحتلال ، ولم تفطن شعوب العالم الثالث الى فكرة الاستعمار الجديد الا منذ سنوات قليلة .

ذلك لان هذه الشعوب توهمت ان الجلاء العسكري قد فتح امامها باب الحرية والتقدم على مصراعيه ، وغطت الفرحة بالاستقلال السياسي على كل شيء ، وتوهم الناس ان صفحة جديدة في تاريخ البشرية قد فتحت ، وأصبح اعداء الامس لفترة اصدقاء اليوم . فلما أكتشفت بعد ذلك تلك الشعوب ان مطالب النمو الاقتصادي ستكون حتما على حساب الرخاء الذي نعم به اعداء الامس والذي ظلوا ينعمون به وهم اصدقاء اليوم ، احسوا انهم فعلا اخطأوا التصور ، واثبتت الوقائع ذلك .

واهم من هذا في اكتشاف الشعوب لهذا الاستعمار الجديد هو الموقع الذي احتلته الولايات المتحدة الامريكية في عالم اليوم ، وفي الزعامة التي ظفرت بها على الغرب الاوروبي ، وفي محاولة سيطرتها على العالم كله ممثلة للرأسمالية العالمية ، حتى لقد اصبح مدلول الاستعمار الجديد ينصب اولا وبالذات على الولايات المتحدة .

ان العزلة التي عرفها عالم المستعمرات عن امريكا قبل الحرب العالمية الاولى جعلته لا يعد الولايات المتحدة دولة استعمارية وان كانت لها مستعمرات . وحتى بعد ان شاركت امريكا في الحرب العالمية الاولى ضد المانيا ظل عالم المستعمرات يحسن بها الظن ، واستمر حسن الظن قائما الى حد ما اثناء الحرب العالمية الثانية . ولكن الوجه البغيض لامريكا وضح امام العالم الثالث بعد الحرب الثانية بفترة ، حين ازداد نشاطها الاقتصادي واتسعت سيطرتها الرأسمالية واخذت تعمل سافرة لحسابها في كل مكان في الارض ، متسترة وراء محاربة الشيوعية تارة ، ووراء دعوى معاونة الشعوب المتخلفة ومساعدتها تارة اخرى .

وقد اصبحت اساليب اميركا في استغلال الشعوب وفي الاحتكارات العالمية وفي محاربة الثورات التقدمية وفي تأييد الصهيونيه العالميه اوضح من ان تخفى واكثر من ان تحصى . ولذلك لم يعد يحول بينها وبين استخدام اساليب الاستعمار القديم نفسه في بعض مناطق العالم ، كما حدث ويحدث في كوريا وفيتنام . ولا شك ان الوطن العربي قد حمل من العدوان الامريكي افدح الاعباء ممثلا في تدعيم الاغتصاب الصهيوني لاعز بقعة في الوطن العربي ، وحمايته وتزويده بالقوة والدعم المالي ليضيف الى عدوان سنة ١٩٤٨ عدوانا اخر في سنة ١٩٦٧ . وليس من شك في ان موارد امريكا الضخمة وتعدادها السكاني قد اتاح لها ان تنهض في مجال الاستعمار بما لا تستطيع اوروبا الغربية ان تنهض به . بل ان اوروبا الغربية صاحبة الاستعمار القديم اصبحت تابعة لهذا الاستعمار الجديد وأداة من ادواته . وامريكا هي صاحبة الفكرة في تحويل الاستعمار القديم الى استعمار جديد يشترك معها فيه من يجدون فيها حماية لوجودهم كدول رأسمالية .

ولكننا في حديثنا عن الاستعمار الجديد حين يتصل الامر بالثقافة وواجب المثقفين العرب لن نفرق بين الغرب الاوروبي وبين امريكا .

لقد اشرنا من قبل الى التحول الذي حدث اثناء الاستعمار القديم من الانتقال الى الاحتلال العسكري المباشر او السافر الى احتلال مقنع في صورة معاهدات استقلال الى ان جاء الاستعمار الجديد . والامر ايضا في مجال الثقافة يشبه الامر في مجال السياسة . فقد بدأ الاستعمار القديم بباشر ضغطه الثقافي سافرا أول الامر ثم أخذ يخفف من غلوائه ويسلك طرقا غير مباشرة وغير سافرة ليفرض سيطرته الثقافية .

فرض اول الامر لغته على البلاد المغلوبة فرضا ، وجعلها لغة التدريس في مراحل التعليم كلها ، وجعل اللغة القومية لغة ثانوية . فعل ذلك في مصر ، ثم فعله بصورة ابشع في المغرب العربي . وعمل على ان تكون المدارس معامل لتخريج الموظفين وكتبة الدواوين . وحارب بشراسة الثقافة القومية ، واقام العقبات في سبيل انشاء الجامعات الحرة التي يتربى فيها جيل جديد حديث من المواطنين . وحاول عن عن طريق التبشير أن يخرج المواطنين عن عقيدتهم الدينية الى عقيدة المحتلين ، وبذل في ذلك كثيرا ، ثم حاول محاربة المجددين واحتضان اصحاب التخلف الثقافي من الطرقيين واشباههم . فلما استعصى عليه ذلك اخذ يغير من خططه ، ويختار من المواطنين من يتكلمون ثقافيا نيابة عنه بلسان قومي . وجهود دنلوب وكرومر في مصر تقابلها جهود نظرائهما في كل قطر عربي . ومضى الاستعمار الجديد في هذا الاسلوب المتطور للاستعمار القديم . وصارت المؤتمرات العلمية والمنح الدراسية واستضافة المحاضرين وتبادل الاساتذة وتصدير الافلام السينمائية وطبع الكتب والانفاق على ترجمة الفكر الامريكي والغربي وتوزيع المجلات واصدارها بالعربية ، واهداء المطبوعات والتسلل الى الجمعيات والاندية الثقافية .. أصبح كل ذلك اسلوبا جديدا يأخذ به الاستعمار الجديد ويستفيد منه . وعدل عن الدعاية الثقافية المباشرة وقدم صورا للحياة في بلاده يعرضها على شعوب العالم الثالث لتكون مثلا عليا ونماذج للحياة السعيدة والبيت السعيد والسلوك المثالي والعلاقات المنشودة . وغاية هذا كله ان تصبح شعوب العالم الثالث وهمها المقيم المقعد ان يقلد اصحابها ـ دون وعي او فهم ـ السادة الجدد ، وأن يطربوا لما يطربون له ويفكروا على نمطهم ، ويعيشوا على اساليبهم وان كانوا لا يملكون القدرة المادية التي يملكها اولئك ، ولكن يكفي في هذا السبيل ان تمتلك بعض الطبقات ، وان قل عدد افرادها ، هذه القدرة المادية لتصبح نماذج في ارض الاستعمار الجديد تحلم الجماهير الفقيرة بانها سوف تصل الى مستواها في يوم من الايام ، دون نظر الى امكان ذلك او عدم امكانه . وبذلك يزداد المجتمع اختلالا ، وتزداد الهوة بين الطبقات اتساعا وينقطع ما بين التراث والحاضر ، وتضيع الاصالة ويصبح التقليد الرخيص والمحاكاة المظهرية شعارا وهدفا . ويربط العالم الثالث بالاستعمار الجديد ويصبح تابعا هزيلا يدور في فلكه . وبذلك يصبح النداء بالاصالة او الدعوة الى الاشتراكية وعدالة اجتماعية ومحاولة اذابة الفوارق بين الطبقات عملا عدائيا للاستعمار الجديد وحركات هدامة وبؤسا وحرمانا وتضليلا للشعوب عن المثل الاعلى الذي يعرضه الاستعمار الجديد بكل وسيلة ويدعو اليه ليل نهار .

وهذه الصورة المجملة لاساليب الاستعمار الجديد ومفاهيمه يتعرض المواطنون العرب كما يتعرض غيرهم لوطأتها ويجدون تفاصيلها في الحياة الثقافية في اقطارهم .

وهنا يجيء دور المثقفين العرب في مقاومة هذا الاستعمار الجديد . وما يطلب منهم من مراجعة الموقف الثقافي كله مراجعة مستمرة تهدف الى ان تجعل من الثقافة العربية على اختلاف الميادين ثقافة اصيلة تقتبس ما تشاء وتدع ما تشاء عن وعي وبصيرة ، ولا تنزلق الى التقليد الاعمى والمحاكاة الزائفة التي تمسخ الشخصية الثقافية ولا تقدم للعالم الا اصداء خافتة وصورا باهتة

لانتاج الغير . لقد اتصلت الثقافة العربية من قبل بثقافات اجنبية واقتبست عنها واستفادت منها فيعصور الازدهار من يونانية وفارسية وهندية واحتفظت مع ذلك بطابع متميز وأفق رحب وانتاج مبتكر وجهد مثمر خصب . وتستطيع الثقافة العربية اليوم ان تواصل السير على هدى ذلك ، وان تقدم لاصحابها وللانسانية كلها انتاجا له اصالته مضمونا وشكلا .

واحسب ان المثقفين العرب لكي يستطيعوا ذلك ينبغي ان يضعوا نصب اعينهم مبادىء او نقاطا اجمل بعضها فيما يلي :

اولا ـ على المثقف العربي ان يعرف تاريخ امته الحضاري معرفة كاملة او قريبة من الكمال . ولفظ الحضارة هنا يشمل جوانب النشاط الفكري والفني المختلفة ويضم ايضا التراث الشعبي بكل مظاهره . وموقفنا من التراث يثير كثيرا من القضايا المعقدة ، وربما يوحي في اذهان بعض الناس شيئا من الريبة والشك افتراضا من ان الاستغراق في التراث يصد المستغرقين فيه عن قبول التطور ويحول بينهم وبين المرونة والتجديد. وقد يحدث هذا احيانا ولكن الدراسة العلمية الصحيحة هي التي تضع كل شيء في موضعه التاريخي ، وتملك المقدرة على ان لا تخلط بين الماضي والحاضر لانها تدرس التطور وتعلل له وتراجع الاحكام دائما . وفي هذا ما يعصم الدراسة العلمية من ان تنتهي الى تقليد او تعصب. ان هذا التراث جزء من كيان الامة العربية اليوم ، بما في ذلك التراث الحضاري الذي عاش على أرض الوطن العربي قبل انتشار الاسلام وقبل استكمال الوحدة الثقافية العربية . ولا بد لكي نفهم واقعنا ونبني مستقبلنا ان نعرف ما في مجتمعنا من بذور ورواسب لهذا الماضي الطويل . ولا يزال هذا التراث العربي بمعناه الشامل قادرا على ان يوحي لمثقف اليوم وان يفتح له مجالا للاقتباس والابتكار يكسب العمل الثقافي أصالة لا تتهيأ لمن حرم من معرفته . ولم يحدث في تاريخ الحضارات ان انقطعت الاسباب بين الحضارة السابقة واللاحقة ، وليست الامم الحديثة في الغرب او الشرق ترضى لنفسها ان تجهل تراثها ، وانما جهدها يقوم على زيادة الفهم لهذا التراث وزيادة الانتفاع به .

وانما بدأنا بهذه النقطة لان من اهداف الاستعمار الجديد ان يبت جذور التراث من نفوس المستعمرين ليكونوا على استعداد كامل لتقبل الصور التي يلقونها ، او ان يبقى التخلف الثقافي مرتبطا بقشور هذا التراث القديم ليقضي على كل طموح وتفتح ومراجعة عقلية ، وينبغي لنا ان نتجنب الامرين جميعا . وان نعمل على تنمية البذور الصالحة من هذا التراث وتعهدها لكي تزدهر على المستوى الجماهيري فتبرأ الجماهير من الجمود وتبرأ أيضا من العنف والبساطة الساذجة التي تجعلها تصدق كل شيء .

ثانيا ـ يتبع هذه النقطة الاولى ويكملها ان يعرف المثقف العربي الواقع الحالي لامته ومجتمعه ، ومعرفة هذا الواقع والاحاطة به يستلزم شيئين : دراسة علمية جادة للمشاكل القائمة ، والتحام كامل بالمجتمع الذي يعيش فيه المثقفون . وكثيرا ما تثير الدعوة الثانية ، اي الالتحام بالجماهير ، فزعا عند بعض المثقفين الذين يتحدثون عن المستويات الثقافية ، ويظنون ان معايشة الشعب ومعاشرة الجماهير استيحاء وانتاجا ومخاطبة سيهبط بمستوى الانتاج الثقافي بدلا من ان يرتفع به ، وهذا شعور نجده عند كثيرين من اصحاب الفنون التشكيلية والتعبيرية ، وهم مع ذلك يقعون في ازمات لا يستطيعون ، الخروج منها ، اذ انهم يتمثلون المجتمع الاوروبي حين يصورون ويلحنون ، ثم يدركون انهم لا يستطيعون اضافة جديد الى ما ينتجون ، فيصبحون تلامذة لمدارس الغرب واساتذته ، ويظلون في مستوى التلمذة ، فلا يظفرون باعجاب اولئك ولا يتجاوبون مع ابناء شعبهم . واعتقد ان سوء الظن بالجماهير واتهام الشعبية بالاسفاف اثر من آثار الاستعمار الجديد أيضا وان تكن له جذور اقدم من ذلك ، واحسب ان علاج ذلك مزيد من الالتحام بالجماهير ، فان في هذا مما يطرد الغربة عن الفنان الحقيقي ويتيح له فرصا لو استطاع بموهبته الانتفاع بها لحلت له ازماته

في الاسواق

قصة الحرب القذرة ...

في فييتنام !

اقرأها في رواية الروائي الاسترالي الشهير

موريست وست

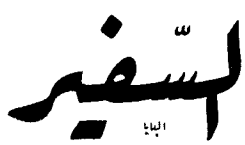

كما يقصها سفير اميركي عين في سايغون ، فعاش مؤامرات المخابرات السرية الاميركية مع عدد من الجنرالات المتآمرين ، وخرج بمأساة شخصية تجسدت في صراع بين الاخلاق والانتهازية السياسية ...

ترجمها : نزيه الحكيم

منشورات دار الآداب

وهدته الى الطريق الذي يكتشف فيه شخصيته متفاعلة مع شخصية امته . وقد قامت في هذا المجال تجارب في التصوير وفي التلحين الموسيقي تبشر بخير وتثبت ان الطريق غير مسدود .

ثالثا ـ ان المثقف العربي يعيش في عالم تزداد حلقات الارتباط بين اجزائه يوما بعد يوم ، عالم اصبح صغيرا بالقياس الى العصور السابقة بحيث اصبحت لا تفهم احداث منطقة منه الا على ضوء احداث المناطق الاخرى . ومعنى هذا ان العزلة الحضارية القديمة لم يعد لها وجود في عالم اليوم . وسيؤكد المستقبل هذه الحقيقة . ومعنى ذلك ان المثقف العربي اذا رأى ان يسهم ايجابيا في تاريخ امته وعصره وعالمه لا بد ان تتسع آفاق ثقافته لتشمل العالم كله . فلا تقف عند نوع دون نوع ، ولا تقتصر على أدب دون أدب ، والاستعمار الجديد يحرص على ان يكون للثقافة في البلاد المتخلفة منبع واحد هو منبع المستعمرين الجدد ، ويكاد المثقفون العرب يجهلون ثقافات تحيط بهم جنوبا وشرقا ، ولا بد من ان يمكنوا من النظر الى الجهات الاربع ولا يركز بصرهم على جهة واحدة . ولا بد من جهود مثمرة في هذا السبيل . ان طموح المثقف العربي ينبغي ان يتجاوز الحدود ولن يتحقق له ذلك الا اذا تزود بثقافة عالمية شاملة ناضجة متكاملة تعينه على اداء رسالته والقيام بدوره في خدمة الانسانية جمعاء .

رابعا ـ وحين يتصل الامر برسالة المثقف ودوره في الحضارة الانسانية تجيء فكرة التقدمية وتفرض نفسها فرضا ويجيء التطلع الى المستقبل المنشود للانسانية ، في مجتمع يسوده السلام والعدالة ، مجتمع يتخلص من الارهاب والظلم الاجتماعي ويبرأ من الاستغلال بكل أشكاله وانواعه ، وهذا ما يزعج الاستعمار الجديد لانه يقلم اظفاره ويضرب قواعده ويفسد عليه خططه . والمثقف العربي ينبغي ان يشعر بمسؤوليته في هذا السبيل ، وان يعلم ان الصراع القاتل العنيف الذي يجتاح الدنيا اليوم هو صراع بين الاستغلال والطبقية الممتازة والتمييز العنصري من جانب وبين الاشتراكية والعدالة والمساواة في الحقوق من جانب آخر . وانتماء المثقف العربي الى امة كانت ولا تزال فريسة للاستغلال الرأسمالي بصورتيه القديمة والجديدة يحدد له موقفه ويبين له طريقه . وحين يكتمل لهذا المثقف العربي وعيه بتاريخ امته وتراثها وادراكه لواقعها الحالي والتحامه بجماهيرها وحين تتضح ثقافته وتصل الى المستوى العالمي لن يملك الا ان يكون تقدميا ولن يستطيع الا ان يكون خصما للاستعمار الجديد كما كان خصما للاستعمار القديم .

عبد العزيز الاهواني

ترجمة فكتور سحاب

كاسترو يتكلم ..

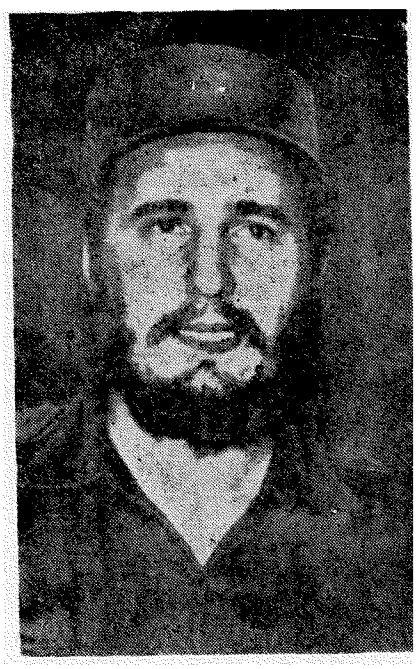

فيديل كاسترو ، زعيم كوبا ، ومحرك الثورات في اميركا اللاتينية كلها ، والمحرض الاول على حروب العصابات ، والعدو اللدود والخصم رقم ١ للولايات المتحدة الاميركية ، يتكلم ...

انها آخر الخطب التي ألقاها الزعيم الكوبي ، في مناسبات مختلفة ، سواء أمام مندوبي الدول الذين حضروا مؤتمرات سياسية للقارات الثلاث في لاهافانا ـ وفيها أهم خطاب لكاسترو بعنوان « الطريق الاساسية » ـ أو بين جماهير الشعب الكوبي التي تتوافد بمئات الالوف للاستماع الى زعيمها وهو يفضح سياسة الاستعمار العالمي عامة والاميركي خاصة . وبين هذه الخطب الخطاب الاخير الذي رثى فيه كاسترو رفيقه في الثورة والنضال : ارنستو غيفارا ...

كتاب رائع وهام لا بد للمثقف العربي من قراءته .

صدر حديثا **الثمن ٣٥٠ ق.ل**